وما تم عرضه علينا في إجابات تودد وفي أسئلتها إنما هو ثقافة الرجل وعلومه حفظتها الجارية وأعادت إنتاجها، مثال على ذلك جوابها عن سؤال الحكيم عن (الجماع) حيث ترد الجارية بجواب طويل يصف حالات الجماع وأحسن أوقاته ويحدد فوائده ومضاره (508/2). وهي معرفة لا تصدر عن فتاة غضة لما تزل في بواكير عمرها، بينما الحديث عن الجماع هو حديث الخبرة والسنين وطول التجاريب، وهو أشبه بثقافة الرجل المسن أو الحكيم الخبير منه بذكاء الفتاة اليافعة. وهذا يؤكد فكرة (الحفظ) مثلما تشير إلى الحفظ إجاباتها كلها مما هي معارف موسوعية تختزنها الكتب في ذلك العصر.

ولعل الوقوف على أعماق الجذر الدلالي لكلمة تودد يحيلنا إلى ما ورد في معنى (المودة) حيث جاءت إشارة إلى أن معناها (الكتاب) وبه فسر بعض المفسرين قوله تعالى (تلقون إليهم بالمودة) أي بالكتب[9]. وهذا يقيم علاقة جذرية بين اسم الجارية ومفهوم الكتاب، وكأن تودد قد برزت أمامنا بوصفها كتاباً أو موسوعة معارف من المحفوظات العصرية. ولم يظهر في فعلها كله ـ على الرغم من الحس الطاغي بالتحدي ـ أي تحد إبداعي يمكن أن ينسب إلى لغة المرأة وإبداعاتها، أو يوصف بأنه خروج على الثقافة الذكورية ولغة الفحل.

ولعل ذلك لم يكن ممكناً في مرحلة (زمن الحكي). وكان يكفي في هذه المرحلة أن تظهر المرأة من القدرة على الدفاع عن وجودها المعنوي وعن حضورها النوعي. واحتاج الأمر إلى قرون وأجيال لكي تصل المرأة إلى لغتها وتؤسس خطابها الخاص ـ كما سنرى في القسم الثاني من زمن الكتابة، إن شاء الله ـ.

وبسبب هذا القصور الإبداعي فإن انتصار المرأة في هذه الحكاية لا

(9) القاموس المحيط، مادة (ود).